على هامش الندوة الاستشراقية حول حياة الرسول

المنعقدة في ستراسبورغ

• نزيه كسيبي •

ربما كان لمركز ستراسبورغ السياسي والجغرافي(١) اثره في نشاطها العلمي . كما أن تواجد مراكز البحث العلمية والدينية واللغوية ونشاط الباحثين فيها يدفع بهذا النشاط ويطوره . فعلى صعيد الدراسات الانسانية عقد في صيف عام ١٩٧٩ ، ندوة عن الجغرافية الادارية والسياسية من عهد الاسكندر حتى محمد ، كما عقد في صيف عام ١٩٨٠ مؤتمر عالمي حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية في ظل الامبرطورية العثمانية بين أوائل القرن الثامن عشر واوائل القرن العشرين(٢) .

ولاشك أن لمعهد الدراسات العربية والاسلامية في ستراسبورغ دوراً بارزاً بالاهتمام بالدراسات الاستشراقية ؛ ففي خريف هذا العام اي بين ٢٣ ـ ٢٤ تشرين اول ١٩٨٠. عقدت ندوة عن **حياة الرسول من خلال اعمال المؤرخين في القرون الثلاثة الاولى من الهجرة .**

وكان كتاب سيرة ابن هشام(٣) محور الندوة . وقد شارك فيها باحثون درسوا السيرة ذاتها وآخرون اضافوا الى موضوع الندوة الرئيسي اطروحات وتساؤلات أخرى لا تقل اهمية(٤) .

ومن الذين تناولوا السيرة مشيرين الى مصادرها ، او الى طبيعة الوصف الشخصي فيها مقارنين بعض مشاهد من حياة الرسول بالمسيح والانجيل، أو الى أسلوب الخطاب فيها :

١ ـ رئيف خوري من جامعة هايدلبرغ Heidelberg في المانيا الاتحادية:
المصادر الاسلامية للسيرة قبل ابن هشام وقيمتها التاريخية .

٢ ـ مونتغمري وات W. Montgomery Watt من جامعة ادامبرغ Edimpurgh في انكلترا :
مصارد ابن اسحاق واستغادته منها .

٣ ـ وهيب عطا الله من جامعة نانسي Nancy في فرنسا :
أسلوب الخطاب القديم والجديد في سيرة ابن هشام .

---

(١) تقع هذه المدينة الفرنسية على الحدود الالمانية وتعقد فيها ندوات البرلمان الاوربي .

(٢) وقد شارك فيه بعض الباحثين العرب من جامعات دمشق وعمان وبيروت .

(٣) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المَعَافري (٢١٣ / ٨٢٨) ، ولد ونشا بالبصرة ، وتوفي بمصر ، مراجع ابن خلكان (٦٨١ / ١٢٨٢) ، وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص ١٧٧ . والاعلام للزركلي ، ج٤ ص ٢١٤ . لمزيد من التفصيل حول الكتب التي رجعنا اليها انظر : ثبت المراجع .

(٤) لقد القيت المحاضرات بالانكليزية والفرنسية . ويلاحظ ان الندوة كانت خلوا من اساتذة مدعوين من الجامعات العربية او الاسلامية .

٤ ـ توفيق فهد من جامعة ستراسبورغ :

دور الوصف الشخصي في تأليف السيرة(٥) .

٥ ـ شارل بلا Charles Pellat من جامعة باريس :

بعض النساء المعاديات للنبي .

٦ ـ مارتين هيدنس Martin Hidns من جامعة كمبردج :

معنى مصطلح المغازي .

ومن الذين عالجوا حياة النبي من خلال المصادر البيزنطية والسريانية والاغريقية ، منبهين الى طبيعة صورة النبي لدى بعض الكتاب المسيحيين في تلك الفترة والى المصادر التي افادوا منها في اخذ هذه الصورة :

١ ـ استريوس ارغيريو Asterios Argyriou من جامعة ستراسبورغ :

ملامح سيرة الرسول محمد في الادب الاغريقي من القرن الثامن الى القرن التاسع الميلادي .

٢ ـ برتولد شبولر Bertold Spuler من جامعة هامبورغ في المانية :

محمد وبدايات الاسلام في أعمال المؤرخين السريان .

٣ ـ سدني غريفث Sidney Griffth من جامعة واشنطن :

النبي محمد عمله ورسالته وفق انصار المسيحية في اللغة العربية والسريانية في القرن العباسي الاول .

٤ ـ جيرارد تروبو Gérard Troupeau من باريس :

سيرة محمد في آثار الكاتب بارتلمي الاديسي Barthélemy d'Edesse مشكلاتها ومكانتها في نتاج المؤرخين السريان والبيزنطيين .

ومثل هذه الندوات تطرح على القارىء العربي طبيعة دراسات المستشرقين او المستعربين وأهدافها ومشكلاتها ، ومن ثم موقفه منها او موقف المتلقي والمتصل لها ام المتفحص والناقد ام الرافض لها رفضا كليا ؟

---

(٥) استعمل المحاضر الكلمة الفرنسية Typologie ويقصد بها دراسة العناصر الشخصية والخلقية للرسول .

فما **الاستشراق**(٦) ، ما سمته ومساراته ؟

اذا كان السيد ماكسيم رودنسون Maxim Rodinson في كتابه **(سحر الاسلام**(٧) La Fascination de l'Ilam) يرى ان « ليس هناك من استشراق ودراسات علمية مختصة بالصين ودراسات علمية مختصة بايران ... الخ . هناك نظم علمية محددة بموضوعاتها ومشكلاتها الخصوصية ، مثل علم الاجتماع وعلم احصاءات الشعوب والاقتصاد السياسي واللسانيات وعلم الانسان او علم سمات الاعراق البشرية والفروع المتنوعة للتاريخ التعميمي ... الخ . ويمكن (لهذه العلوم) ان تطبق على شعوب او مناطق مختلفة ، وعلى حقبة او اخرى ، آخذين بالاعتبار خصوصية هذه الشعوب او المناطق او العصور »(٨) .

ولئن لاحظ السيد ادوارد سعيد في كتابه **(الاستشراق : شرق صنعه الغرب** L'Orientalisme , l'Orient crée par l'Occident) ان الباحثين الغربيين يقلعون عن استخدام مصطلح الاستشراق لغموضه وارتباطه بالاستعمار الاوربي في القرن التاسع عشر واوائل العشرين(٩) فالامر ليس كذلك دائما .

لقد اختلفت النظرة نحو الشرق حسب العصور من نظرة معادية او متخوفة ومتشككة او متفهمة . وكان الاهتمام ، بشكل او بآخر ، يعود الى ثلاثة عوامل : عامل حضاري فالحضارة العربية الاسلامية أمر مختلف عما في

---

(٦) استخدم مصطلح المستشرق Orientaliste بدا من عام ١٧٧٩ في انكلترا وعام ١٧٩٩ في فرنسا ، اما مصطلح الاستشراق Orintalisme فقد بدىء في استعماله في معجم الاكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ .

(٧) السحر هنا بمعنى الجاذبية والروعة .

(٨) صدر هذا الكتاب في ايلول ١٩٨٠ : CF. P. 142

(٩) Voire P. 14 لقد صدر هذا الكتاب مترجما عن الانكليزية أو الامريكية في الربع الثالث من عام ١٩٨٠ ، ونامل ان ياخذ كتابا ادوارد سعيد وماكسيم رودنسون طريقهما الى التعريب لما فيهما من معلومات غزيرة حول موضوع الاستشراق .

اوروبا ، وعامل سياسي ايديولوجي ، وارتباطهما بالدين واختلاف هذه الايديولوجية عما في اوروبا ، وعامل اقتصادي ، فالشرق ميدان رحب للتجارة . ان ذلك كان يدعو الفربيين الى كشف هذا العالم وسبره ، او لنقل ان العلاقات بين الغرب والشرق اتخذت طابع العلاقة بين الغالب والمغلوب او المستعمِر والمستعمَر على الصعيد الثقافي والسياسي والاقتصادي ، وخفوت هذه الدوافع او العوامل وانحسارها نتيجة ظروف موضوعية أو ذاتية تتعلق بالحالة الدولية وميزان القوى الجديد ووضع الدول المتخلفة ، ثم اتخاذ هذه العلاقة طابع الاحتياج في الفترة الحالية اوقع الدراسات الاستشراقية بازمة يبدو انها ليستازمة عابرة.

وقد تشعبت تيارات الدارسين للشرق وتعددت آراؤهم فيه ؛ فمنهم من كان مأخوذا بأفكار مسبقة يخدمون في كتاباتهم الحركة الاستعمارية للفكر الاوروبي سرا وعلانية (١٠) . فكتابات وليم موير William Muir (١٨١٩ – ١٩٠٥) مثل : **حياة الرسول** The life of Mahomet ، **والخلافة بتالقها وانحدارها وسقوطها** The Califat , Its Rise , Decline and Fall مازالت تعد شواهد على التنقيب الجدي ، بيد انها – على حد تعبير ادوارد سعيد – عرض موقفه تجاه موضوعه صراحة حين قال : « سيف محمد والقرآن هما العدوان الاكثر عنادا للحضارة والحرية والحقيقة . . . » (١١).

ومنهم من اخذ الموقف المناقض تماما فدانوا بالاسلام نحو رينه غينون Réné Génon ١٨٨٦ – ١٩٥١(١٢) . وكتبوا عن الرسول وكأن ابن هشام قد بعث في القرن العشرين نحو الرسام الفرنسي الفونس اتين دينيه

---

(١٠) وكانهم بذلك صحفيو الدول المستعمِرة في تقاريرهم عن الدول المستعمَرة التي يكتبونها دون تحر للحقيقة على حد تعبير فرانز فانون في كتابه : معذبو الارض **Les damnés de la terre , p. 38**

(١١) **CF. Idoird Saïd , l'Orientalisme , P. 167**

(١٢) **CF. Rodinson , P. 97**

Alphonse Etienne Dinet ١٨٦١ — ١٩٢٩ في مؤلفه المنشور بالاشتراك مع احد الجزائريين : **حياة الرسول** **La Vie de Mohamed**

ترى أكان كل المستشرقين كذلك ؟ ألم يكن هناك مواقف أخرى ؟ يجب ألا ننسى أن بين طرفي المستشرقين النقيضين طرفا آخر يدرس التراث دراسة مخالفة تتخذ ، على نحو او آخر ، وجه البحث العلمي الحقيقي ، وقد كان لهؤلاء الفضل في نشر التراث العربي باللغة العربية وتحقيقه تحقيقا علميا فيه كثير من الاناة وكثير من المعاناة والصبر . ولن اتكلم هنا على تحقيقات المستشرقين لأقارنها بالطبعات التجارية غير المحققة بل ساضرب مثالا على طبعتين لديوان احد الشعراء الامويين واسمه عمير بن شييم الملقب بالقطامي (١٠١/٧١٩)(١٤) . أما الاولى فصدرت عام ١٩٠٢ في مدينة ليدن الهولندية بتحقيق السيد يعقوب برت Jacob Barth واما الثانية فصدرت عام ١٩٦٠ في بيروت بتحقيق السيدين احمد مطلوب وابراهيم السامرائي ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ينقص تحقيقهما التخريج الكامل للابيات الشعرية والمطابقة وذكر المصادر على منهجية علمية . في حين ان هذه الامور وافرة وفرة علمية دقيقة في تحقيق السيد بارت عاكسا بذلك عناءه الطويل ونصبه في سبيل اخراج الديوان .

ولندع القطامي فلعلنا سنتحدث ثانية عنه في فرصة اخرى ولنتحدث في الندوة ومحاضراتها وفي السيرة واخبارها !

اما محاضرات الندوة (١٥) فمع انها وجدت شروخا فيما نعده مقدسا بعيدا عن النقد ، ومع ماكان في بعضها من غرابة على الفكر الاسلامي او تماد على هذا الفكر في نظر المتحمسين للتراث العربي الاسلامي ، فهي دعوة للمؤرخين

---

(١٣) Ce livve est réédité à Medea par l'association Mesdied Ennour , s. d.

(١٤) Noire Bräu , H. H. , « al - Kutàmi » , Encyclopédie de l'Islam , l'ére éd., vol 4 , PP 1232 - 1233 .

(١٥) ستطبع المحاضرات في أوائل شباط ١٩٨١ في نشرة خاصة .

العرب لمراجعة التاريخ العربي ودراسته وفق مناهج حديثه ومحققه دون التعصب له او التعصب عليه . ويبدو أن التراث واقع بين هذين الخصمين. وقلة هم اولئك الذين كتبوا ، في هذا المضمار ، بدقة ونزاهة علميتين .

اما السيرة فمؤلفها ابن اسحاق (١٦) ثم جمعها وهذبها وعلق على بعض اخبارها ابن هشام بعد تأليف ابن اسحاق لها بنحو نصف قرن ، بوساطة سند يتيم ، آخذا عن زياد البكائي (١٨٣ هـ) .

ـ علما ان النسخةالاصلية التي كتبهاابن اسحاق نفسه قد ضاعت ووجدت قطع منها في فاس بالمغرب وطبعها حميد الله ، كما قام السيد سهيل زكار بطبعها مقارنا لها مع قطعة اخرى في المكتبة الظاهرية ، في بيروت عام ١٩٧٨ يختلف فيها الاستاذ كما ان فيها بعض الاختلاف مع ما كتبه ابن هشام .

وقد قام عبد السلام هارون بطبع سيرة ابن هشام مجردا اياها من الاسناد ومن بعض الامور التي تبعث على الملل برايه ، دون ان يبدل حرفا واحدا من نص الكتاب دون عناية بتحقيقها وتخريج ابياتها(١٧) .

ويرى السيد عبد السلام هارون في استعراضه اشهر كتب السيرة التي كتبت في القرون الهجرية الاولى ان سيرة ابن اسحاق هي « اعلاها مقاما واشدها وثوقا » (١٨) .

اما ابن سلام (٢٣١ / ٨٤٥) فيذكر في ابن اسحاق شاكا في روايته للشعر: « وكان ممن هجن الشعر وافسده وحمل كل غثاء فيه محمد بن اسحاق وكان من علماء الناس بالشعر فينقل الناس عنه الاشعار وكان يعتذر منها

---

(١٦) محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي بالولاء ١٥١ / ٧٦٨ من اقدم مؤرخي العرب ، نشأ في المدينة ومات في بغداد . راجع الاعلام للزركلي ج٦ ، ص ٢٥٢ .

(١٧) انظر : عبد السلام ، تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٠ .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ٩ .

ويقول : لا علم لي بالشعر انما أوتى به فاحمله ولم يكن ذلك له عذرا»(١٩). واذا كان ابن هشام قد حذف الاخبار ذات الصلة بالامم الغابرة ، واقتصر في نقده ابن اسحاق على الاشعار التي رواها دون ان يسحب ذلك على الاخبار فان طه حسين سيشك في بعض اخبار السيرة وقصصها وفي ابن اسحاق والشعر الذي يرويه (٢٠) .

وبعد ، نقتصر على هذه الاشارات حول الشك والنحل في السيرة ، فحديث الشك قديم معروف اصبح يبعث على الملل والسأم . وفي أواخر القرن العشرين لم تعد الدراسة التاريخية البحتة كافية فقد بدأ المحققون بالاعتماد على الدراسة اللغوية او اللسانية قبل اصدار النقد التاريخي لانهم يعدون ان القاعدة الاساسية لتحقيق النصوص التاريخية قاعدة لغوية .

ومن ثم ما احوج السيرة الى دراسة لغوية اسلوبية من هذا الطراز . فهي مصدر غني ، ليس في جانبه الديني فحسب ، بل في جانبه اللغوي والادبي والتاريخي أيضا ، وميدان فسيح للدراسة اللسانية الوصفية .

---

(١٩) محمد بن سلام ، طبقات الشعراء ، ط . ليدن ، ص ٤ . وكان ابن سلام يقول بالقدر ، فقال اهل الحديث : يكتب عنه الاشعار اما الحديث فلا . راجع الاعلام ج٧ ، ص ١٦ .

(٢٠) راجع الصفحات ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ـ ١٥٦ في كتاب طه حسين : من تاريخ الادب العربي ، ط ٢ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٥ .

ثبت المراجع

١ – ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين ، محمد بن أبي بكر ٦٨١/١٢٨٢ . **وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان** ، تح . احسان عباس ، سبعة مجلدات ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٨ – ١٩٧١ .

٢ – ابن سلام ، محمد بن سلام الجمحي ٢٣١/٨٤٥ ، **طبقات فحول الشعراء** ، تح . جوزيف هيل ، ليدن . بريل . ١٩١٦ ، LXXVI + ٢٠٦ ص .

٣ – ابن هشام ، عبد الملك بن قريب ٢١٣/٨٢٨ ، **السيرة النبوية** ، تح . مصطفى السقا، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، أربعة أجزاء ، القاهرة ، مصطفى البابي ، ١٣٥٥/١٩٥٥ .

٤ – حسين ، طه ، **من تاريخ الادب العربي – العصر الجاهلي وألعصر الاسلامي** ، طبعة ثانية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٥ ، ٦٦٤ ص .

٦ – القطامي ، عمير بن شييم ١٠١/٧١٩ ، **ديوان** ، تح . يعقوب بارث ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٢ ، 53 + XXII ، ٩٢ ص .

٧ – القطامي ، عمير بن شييم ، **ديوان** ، تح . احمد مطلوب وابراهيم السامرائي ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٠ ، ١٩٦ .

٨ – الزركلي ، خير الدين ، **الاعلام** ، طبعة ثانية ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، مطبعة كوستاتسوماس ، ١٩٥٥ .

٩ – هارون ، عبد السلام ، **تهذيب سيرة ابن هشام** ، طبعة سادسة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ ، ٤١٦ ص .

1 — Dinet , Alphons Etienne et Ben Ibrahim , Sliman , La vie de Mohammed , Medea , Réédité Par l'associasion Masdjed - Ennour , Sans date , 276 P. +X VI i IL .

2 — Encylopédie de l'Islam , I^re édition , 4 vol . + un suplément Leyde - Paris , 1913 - 1938 .

3 — Fanon , Frantz . Les damnés de la Terre , 2 émeédi , Paris , Maspero , 1968 , 233 p.

4 — Rodinson , Maxime , la Fascination de l'Islam , Paris , Maspéro , 1980 , 159 p.

5 — Saïd, Edward, L'Orientalisme-L'Orient Crée par l'Occident, Traduit de l'Américain par Cathrine Malamoud , Paris , Le Seuil , 1980 , 295 p.